المستعمرات الإسبانية في أفريقيا

م.م. ستار حامد عبد الله العماري م.م. عباس حسن عبيس الجبوري

The Spanish Colonies in Africa

Asst. Lect. Abbas Hasan Ubays Al-Juborri
Asst. Lect. Sattar Hamid Abullah Al-Imari

Abstract

Spain is considered the first European countries that made geographical discoveries. there were several aims behind these discoveries one of them is fighting Islam and Muslims after they drove Muslims out of Spain in 1492. In addition to the factor of economy, Spain after the Portuguese were the first countries colonized Africa. These colonies were in the north and the west of Africa.

المقدمة

تعد اسبانيا من أوائل الدول الأوربية التي دخلت مضمار الاستكشافات الجغرافية وحلبة الصراع الاستعماري مدفوعة بعوامل عديدة يأتي في مقدمتها العامل الديني المتمثل بمحاربة الإسلام والمسلمين بعد أن اخرجوا المسلمين من بلادهم 1492، إضافة إلى العامل الاقتصادي فكانت من أولى الدول التي بدأت باستعمال قارة أفريقيا بعد البرتغال وان كان هذا الاستعمار محدوداً في مناطق معينة في شمال وغرب القارة نتيجة لتوجه الثقل الاستعماري الإسباني نحو مستعمرات العالم الجديد في الأمريكتين بعد تقاسم مناطق النفوذ مع البرتغال.

تميزت أهمية المستعمرات الإسبانية في أفريقيا بعدة ميزات منها الموقع المهم لهذه المستعمرات ودورها في استكشاف مناطق العالم الجديد وكذلك الدور الذي لعبته في تجارة العبيد وتصديرهم إلى الأمريكتين وكذلك أهمية الدور الذي مارسته اسبانيا في مناطق المغرب العربي وشمال أفريقيا والأمصار التي تركها هذا الاستعمار والتي ما زالت باقية إلى الوقت الحاضر.

تكون البحث من ثلاثة مباحث درس الأول منها بدايات ظهور اسبانيا كدولة حديثة وموحدة بعد اتحاد تاجي قشتالة واراغون ومن ثم دخولها في حركة الاستكشافات الجغرافية وإقامة المستعمرات الإسبانية، وتناول المبحث الثاني المستعمرات الإسبانية في شمال أفريقيا والعلاقات التجارية والتبشيرية مع هذه المناطق، وناقش المبحث الثالث المستعمرات الإسبانية في غرب أفريقيا والسياسية التي اتبعتها الحكومة الإسبانية نحو مستعمراتها.

اعتمد الباحث على عدد من المصادر الأجنبية منها تاريخ عهد فردناند وإيزابيلا الكاثوليكيين (The History of the Reign of Ferdinand and Isabella The Catholic) لمؤلفه وليام هـ بريسكوت William H. Prescott وكتاب الاحتلال الإسباني لجزر الكناري (The Spanish Conquest of the Canary Islands) لمؤلفه جون كونور John Conor وغيرها إضافة إلى عدد من المصادر العربية والمعربة ومنها كتاب ميغيل مرتن، الاستعمار الإسباني في المغرب وكتاب بلقاسم الحنايشي، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كتاب فيصل محمد موسى، موجز تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر وغيرها.

المبحث الأول

ظهور اسبانيا كدولة استعمارية

أولاً: اسبانيا في العصر الحديث

تقع اسبانيا في جنوب غرب أوربا في شبه الجزيرة الايبيرية يحدها من الجنوب والشرق البحر الأبيض المتوسط ويحدها من الشمال فرنسا واندروا وخليج بسكاي، والى الشمال الغربي والغرب المحيط الأطلسي والبرتغال.[1]

(1) مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ج3، دار النهضة، عمان، د.ت، ص112.

سقط اغلب شبه الجزيرة الايبيرية في القرن الثامن (711–718) بيد جيوش المسلمين القادمة من شمال أفريقيا وكانت هذه الفتوحات جزءاً من توسع الدولة الأموية وسيطر المسلمون على الأندلس التي كانت تشمل معظم أجزاء اسبانيا باستثناء بعض المناطق الشمالية الغربية مثل منطقة جليقية أو غاليسيا، فان المسلمين لم يفرضوا سيطرتهم تماماً على هذه النواحي لوعورة مسالكها وصعوبة الوصول إليها.[1]

ومن هذه المناطق ظهرت حركة المقاومة الإسبانية التي أخذت تنمو وتتسع حتى أسقطت معظم الإمارات الإسلامية في اسبانيا، وبرزت مجموعة من الإمارات والممالك الإسبانية التي دخلت في صراعات داخلية فيما بينها، ولم تستكمل اسبانيا وحدتها السياسية إلا بعد زواج Ferdinand[2] ملك اراغون من إيزابيلا Isabella[3] ملكة قشتالة، واتحاد التاجين في كل من المملكتين بموجب اتفاقية عقدت عام 1475.[4]

ومن ثم توجه الملكان اللذين أصبحا يعرفان بالملكين الكاثوليكيين وبدوافع دينية للقضاء على أخر معاقل المسلمين في اسبانيا وهي غرناطة التي كان يحكمها محمد الملقب بـ(الغالب بالله) أخر ملوك الطوائف، فتمكنا من إسقاطها عام 1492.[5]

وبعدها بدءا بتثبيت سلطتهما الداخلية وتقوية مركزهما، فقاما بإجلاء اليهود عن اسبانيا ودخلا في العديد من الحروب داخل القارة الأوربية، ليبدأ بعدها تاريخ اسبانيا الحديث مع القرن السادس عشر والذي أطلق عليه المؤرخون (القرن الذهبي)، وتعززت في هذا القرن وحدتها الإقليمية وأنشأت إمبراطوريتها الاستعمارية فيما وراء البحار نتيجة للكشوف الجغرافية وتدفقت على موانئها ثروات مختلفة وامتلأت خزائنها بالذهب وأسواقها بالسلع الثمينة.[6]

ثانياً: حركة الاستكشافات الجغرافية

قام الأوربيون خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر بمجموعة من الرحلات البحرية الاستكشافية عرفت بـ(حركة الاستكشافات الجغرافية)، كان للنهضة العلمية والتطور في علوم الملاحة دور كبير في نشوء هذه الحركة، ففي العصور الماضية اعتقد الأوربيون أن الأرض مسطحة، ولم تكن لديهم معرفة سوى بالأراضي القريبة من بلدانهم، وظن معظم البحارة انه ماذا أبحروا في المحيط الأطلسي سوف يتيهون في الضباب ولن يعودوا إلى بلدانهم أبداً.[7]

لكن ظهور عدد من النظريات ولاسيما تلك التي تحدثت عن كروية الأرض وتطور تقنيات الملاحة كاستعمال البوصلة والإسطرلاب[8] التي أخذها الأوربيون من العرب، دفع بالأوربيين للقيام برحلات بحرية كثيرة مدفوعين بعوامل عديدة من أبرزها العامل الاقتصادي الذي تمثل بمحاولة إيجاد طريق بحري يوصل إلى الهند للتخلص من احتكار التجار العرب والايطاليين لتجارة التوابل المستوردة من الشرق، والتي كانت تصل إلى أوربا بأسعار مرتفعة جداً لكثرة ما فرض عليها من ضرائب ورسوم في طريقها إلى أوربا[9]، كذلك ظهور الخطر العثماني الذي اخذ يهدد بإغلاق هذه التجارة بوجه أوربا، فعمل

([1]) عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال أفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، دار العرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص ص 99-103.

([2]) فردناند الثاني: (10 مارس 1452-23 يناير 1516) أحد الملوك الكاثوليك، ملك ارغون ثم اسبانيا بعد وحدتها مع قشتالة تزوج الملكة إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة وتمكن الأسبان من خلال حكمها من طرد المسلمين من الأندلس والاستيلاء على إمارة غرناطة، أنشئت خلال عهده محاكم التفتيش. للمزيد ينظر: www.wikipedia.org.wiki

([3]) إيزابيلا الأولى (1451-1504): ابنة الملك خوان الثاني تولت عرش مملكة قشتالة للمدة (1474-1504) بعد موت أخيها هنري الرابع وملكة على اراغون بعد زواجها من فردناند الثاني في المدة (1479-1504) للمزيد ينظر: The New Encyclopaedia Britannica، USA،2003، Vol-4 p-733.

([4]) William H. Prescott، The History of the Reign of Ferdinand and Isabella The Catholic، V2، New York، 1973، p. 15.

([5]) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1977، ص77.

([6]) Mary Platt Parmele ، Short History of Spain ، New York ،1916 ، p.22.

([7]) Edward.R.Shaw ، Discoverers and Epxlorers ، New York ، 1910 P.13.

([8]) الإسطرلاب: آلة دقيقة تصور عليها حركة النجوم في السماء وتستخدم لحل المشاكل الفلكية العديدة وتستخدم في الملاحة لمساعدة البحارة في تقدير المسافات وتعيين الاتجاهات وهم في عرض البحر للمزيد ينظر: http://www.mawsoah.net\maoge.asp

([9]) محمد حمدي علي، الاكتشافات الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، القاهرة، 1913، ص ص7-10.

الأوربيون على إيجاد طريق بديل للتجارة مع الشرق لا يمر بالأراضي العثمانية والعربية[1]، ويعد العامل الديني من العوامل المهمة في ظهور هذه الحركة، والذي تجلى في الرغبة بنشر الديانة المسيحية من خلال البعثات التبشيرية، ومحاصرة الديانة الإسلامية، فحصلت هذه الحركة على دعم ومباركة الكنيسة البابوية منذ بدايتها الأولى.[2]

ثالثاً: الاستكشافات الإسبانية:

كانت اسبانيا والبرتغال من أوائل الدول الأوربية التي قامت بالاستكشافات الجغرافية، ساعدها في ذلك الموقع البحري الذي تمتعت به والتعصب الديني الذي تميز به ملوك هذين البلدين في محاولة نشر المسيحية إلى مناطق جديدة.[3]، إلا أن الإسبان تأخروا عن البرتغاليين في هذا المجال لأسباب منها تأخر وحدتها السياسية وانشغالها بالحروب في القارة الأوربية والتي استنزفت الكثير من مواردها المادية والبشرية كما ذكرنا سابقاً إلا أن ذلك لم يمنع أن يكون لاسبانيا دوراً بارزاً في حركة الاستكشافات الجغرافية.[4]

ثم بدئوا بإرسال البعثات الاستكشافية كما فعل جيرانهم البرتغاليين، وبنفس الدوافع في محاولة منهم لإيجاد طريق بحري يوصل إلى الهند، إلا أنهم فضلوا الاتجاه غرباً في كشوفاتهم الجغرافية تحقيقاً لنظرية كروية الأرض، وكان (كرستوفر كولومبس Christopher Columbus)[5] هو رائد الاستكشافات الجغرافية الإسبانية، ولم يكن كولومبس أسبانياً إنما كان بحاراً ايطالياً استطاع بعد انتظار دام سبع سنين أن يحصل على الملكة إيزابيلا ملكة اسبانيا لبناء السفن التي يحتاجها في رحلته، وأبحر في الثالث من آب عام 1492 من ميناء بالوس في اسبانيا ووصل إلى بعض الجزر في أمريكا الوسطى والجنوبية معتقداً انه وصل إلى جزر الهند الشرقية ثم رجع إلى اسبانيا في 15 آذار 1493.[6]

ثم توالت بعدها البعثات الاستكشافية الإسبانية بشكل واسع وتمكنت من استكشاف الكثير من الأراضي الجديدة في مختلف قارات العالم القديم أو الجديد، إلا أن المستعمرات الإسبانية تركزت بشكل كبير في مناطق العالم الجديد في الأمريكتين لاسيما أمريكا الجنوبية، ويعود سبب ذلك إلى الاحتكاك الذي حصل بين الإسبان والبرتغاليين والذي كاد أن يصل إلى حافة الحرب بينهما بشأن حقوق استعمار الأراضي المستكشفة حديثاً.[7]

إلا أن الدولتين لجأتا إلى الكنيسة البابوية لحل النزاع إذ عمل بابا الفاتيكان الكسندر السادس الذي كان من أصول اسبانية على تقسيم مناطق النفوذ بينهما، فوقعت معاهدة (توردزيلاس) في 7 حزيران 1494، والتي قسمت ممتلكات البلدين من خلال خط وهمي يمتد لمسافة 110 ميلاً من جزر الرأس الأخضر مخترقاً منتصف المحيط الأطلسي حتى القطب الشمالي حيث أعطيت اسبانيا حق استعمار الأراضي الواقعة غرب هذا الخط والبرتغال الأراضي الواقعة شرق هذا الخط.[8]

وقد تحول عصر الاستكشافات الجغرافية إلى عصر استعمار واستغلال، إذ دفعت الأموال والثروات الطائلة التي أخذت تتدفق على أوربا دولاً أخرى للولوج في حلبة الاستكشافات الجغرافية، فعملت انكلترا وفرنسا وهولندا على إرسال البعثات الاستكشافية لاستكشاف طرق تجارية جديدة وللسيطرة على المستعمرات في أمريكا واسيا وإفريقيا ودخلت هذه الدول في صراع مرير وحروب طويلة من اجل فرض هيمنتها على المستعمرات وطرق التجارة.[9]

([1]) إياد علي الهاشمي، تاريخ أوربا الحديث، عمان، 2010، ص ص23-24.
([2]) عباس حسن عبيس الوسمي، حرب السنوات السبع (1759-1763، دراسة تاريخية، (رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية، جامعة بابل)، 2011، ص33.
([3]) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، ط5، القاهرة، 1995، ص42.
([4]) جعفر عباس حميدي، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار الفكر، عمان، 2000، ص75.
([5]) كرستوفر كولومبس (1451-1506): ملاح ايطالي من مدينة جنوا قام بعدة رحلات استكشافية لصالح اسبانيا ساهمت رحلاته في استكشاف العالم الجديد على الرغم من عدم معرفته بذلك للمزيد ينظر: http://ar wikipedia.org\wikt\chnistopher-columbu
([6]) الوسمي، المصدر السابق، ص35.
([7]) عبد الفتاح أبو علية وإسماعيل احمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ط3، دار المريخ، الرياض، 1993، ص-ص67-68.
([8]) صلاح احمد هريدي، تاريخ أوربا الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، 2000، ص87.
([9]) حمدي، المصدر السابق، ص35-36.

المبحث الثاني

الاستعمار الإسباني في شمال أفريقيا

أولاً: المستعمرات الإسبانية في شمال أفريقيا

بدأ الإسبان تجربتهم الاستعمارية في عهد فردناند وإيزابيلا وتركز اهتمامهم أول الأمر على المناطق الساحلية لشمال أفريقيا نتيجة لاحتكاكها مع العرب المسلمين لاسيما بعد المحاولات التي قام بها بعض أمراء شمال أفريقيا في تقديم المساعدة للمسلمين في الأندلس وكذلك لإقامة عدد من المراكز والحصون المسيحية على الساحل الإفريقي لمواجهة الإسلام في هذه المناطق[1]، فبعد جان تخلص الإسبان من العرب المسلمين بسقوط غرناطة في الأندلس تتبعوا العرب في المدن الساحلية المطلة على البحر المتوسط من الشاطئ الإفريقي فاحتلوا سبتة ومليلة والجزائر وصفاقس ووهران وغيرها من مدن شمال أفريقيا مستغلين ضعف دولة الموحدين التي انقسمت إلى عدة إمارات متنافسة في المغرب والجزائر وتونس.[2]

كانت أولى المناطق التي احتلتها اسبانيا في المغرب الأقصى هي مليلة عام 1497، وفي ربيع عام 1505 تمكن الأسطول الإسباني من احتلال المرسى الكبير وهو أفضل الموانئ على الساحل الجزائري وأقاموا نقاط تمركز على الساحل منها حصن بيون، ثم تمكن أمير البحر الإسباني بيدرو نافارو من احتلال حجر باديس في شمال المغرب الأقصى عام 1508، ثم استولى على مدينة وهران الجزائرية وقتل ما يقارب 4000 من سكانها، واستولى بعدها على بجاية في كانون الثاني 1510 وطرابلس في تموز 1510.[3]

وكان هدف الإسبان هو السيطرة على حوض البحر المتوسط لاسيما في المناطق العربية التي كانت السلطات فيها ضعيفة ومتناحرة فيما بينها، ثم توجهت أنظارهم إلى تونس التي كانت تشهد صراعات داخلية بين ملوك الدولة الحفصية فطلب احد أمراؤهم المسمى رشيد مساعدة الدولة العثمانية مقابل جعل تونس ولاية تابعة لهم، فأرسلت معه حملة عسكرية بقيادة والي الجزائر العثماني خير الدين باربا روسا[4]، فهرب منافسه الحسن إلى اسبانيا واستنجد بملكها شارل الخامس[5] الذي كان قد أرسل سابقاً بعثة لدراسة الأوضاع في تونس، فقام بإرسال حملة عسكرية كبيرة تمكنت من هزيمة العثمانيين بقيادة خير الدين باشا واحتلال تونس عام 1535[6]، فأصبحت مستعمرة اسبانية حتى عام 1574 حين تمكن الوالي العثماني سنان باشا من استرجاعها من أيدي أخر إفراد الأسرة الحفصية التي تدعمها اسبانيا، ثم عمل شارل الخامس أيضاً على إرسال حملة لاحتلال الجزائر، إلا انه فشل في ذلك عام 1541، وفي عام 1668 اعترفت البرتغال بالسيادة الإسبانية على مدينة سبتة وفقاً لمعاهدة برشلونة المعقودة بين الطرفين[7]، ومع منتصف القرن التاسع عشر أخذت اسبانيا تنظر إلى المناطق المغرب العربي نظرة ذات أهمية لمصالحها الاقتصادية لاسيما مع تصاعد حدة التنافس الاستعماري بين الدول الأوربية وخصوصاً فرنسا التي كانت لديها أطماع في المغرب العربي وكذلك تصاعد الخلافات بين اسبانيا والمغرب، فاحتلت مدينة افني المغربية عام 1859 بموجب اتفاق مع المغرب.[8]

([1]) Prescott، Op.cit، P.21.

([2]) جلال يحيى، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي، الإسكندرية، 1999.

([3]) يحيى، المصدر السابق، ص60.

([4]) خير الدين باربا روسا (1470-1546): اسمه الأصلي هو خضر بن يعقوب ولقبه خير الدين باشا، بينما عرف لدى الأوربيين بباربا روسا (أي ذو اللحية الحمراء) كان قائد أساطيل عثمانية ومجاهداً بحرياً، ولد في جزيرة لسبوس في اليونان المعاصرة أصبح والياً للعثمانيين على الجزائر وقاد الكفاح ضد الأسبان وتوفي في اسطنبول عام 1546. للمزيد ينظر: .http://ar.wikipedia.org/wiki

([5]) شارل الخامس (1500-1558): إمبراطور وملك اسبانيا باسم شارل الأول (1516-1556)، ابن فليب الأول وجوانا أميرة قشتالة، وحفيد فرديناند الخامس ملك أراجون وإيزابيلا ملكة قشتالة ورث إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس بعد موت أبيه 1506 وشارك أمه في ملك قشتالة بعد موت فرديناد الخامس (1516). للمزيد ينظر: .http://encyc.reefnet.gov.s

([6]) عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989، ص- ص 114-116.

([7]) الجمل، المصدر السابق، ص88.

([8]) حميدي، المصدر السابق، ص76.

ثم قامت اسبانيا بتجهيز حملة عسكرية بلغ قوامها (44000) مقاتل وقانت بمهاجمة شمال المغرب في عام 1860 وعقدت معاهدة صلح في مراكش عام 1861 تم فيها التنازل عن جزء من الأراضي لإسبانيا ولما جاءت موجة التنافس الأوربي والتنافس الاستعماري على أفريقيا تمكنت من أن تسبق الدول الأخرى من خلال تأسيس الشركة الإفريقية للمستعمرات عام 1883 التي تمكنت من امتلاك حوالي 500كم على الساحل وتضع يدها على المنطقة الساحلية المواجهة لجزر الكناري والاستيلاء أيضاً على جزر رأس بوجادور في الشمال حتى الرأس الأبيض في الجنوب والتي أطلق عليها تسمية الصحراء الإسبانية فيما بعد، وفي نيسان 1887 صدر مرسوم ملكي اسباني حدد عمق المساحة التي امتلكتها اسبانيا بحوالي 150 ميلاً داخل الصحراء الغربية.[1]

وفي عام 1900 جرت مفاوضات بين فرنسا واسبانيا لحل الخلافات بينها وجرى توقيع اتفاق جرى خلاله تقسيم الصحراء الغربية، كما تم في مؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1906 الذي حضرته معظم الدول الأوربية تم الاعتراف فيه بوضع خاص لإسبانيا وفرنسا في المغرب وقد استمرت السيطرة الإسبانية على إقليم الصحراء الغربية حتى بعد استقلال المغرب وأصبح الإقليم محط خلاف بين المغرب وموريتانيا والجزائر.[2]

ثانياً: إدارة المستعمرات الإسبانية في شمال أفريقيا

ميزت اسبانيا المناطق التي احتلتها في شمال أفريقيا (مليلة، سبتة، افني، الصحراء الغربية) واعتبرتها أرضاً اسبانية تخضع مباشرة لحكومة مدريد واتخذت من مدينة تطوان مركزاً لإدارتها وعينت مندوباً سامياً فيها واعتمد الإسبان نظام الاحتلال المقيد أو المحدد إذ حولوا الموانئ التي احتلوها إلى مواقع حصينة تحيط بها أسوار ضخمة وتحتلها حاميات (بريسيديوس) وقد طبقوا في شمال أفريقيا ما كانوا اتبعوه حيال غرناطة وهو السير بدون خطة واقتصروا على الاحتفاظ بالأماكن الإستراتيجية الهامة التي كانوا يقومون منها عند الحاجة بغزو المناطق المجاورة.[3]

خضعت منطقة النفوذ الإسباني وبموجب اتفاقية مراكش الموقعة مع سلطان المغرب عام 1913 والتي حددت حقوق والتزامات اسبانيا نحو مناطق نفوذها في المغرب للمندوب السامي الإسباني وهو ممثل اسبانيا في منطقة الحماية وفي نفس الوقت هو الحاكم العام لمواقع سيادتها في سبتة ومليلة والذي تولى السلطة الفعلية، تاركاً سلطة شكلية للخليفة وهو لقب لنائب السلطان المغربي وتساعده في مهامه حكومة هي الحكومة الخليفية[4]، ويقوم المندوب السامي بمراقبة إعمال خليفة السلطان وتساعده خمسة إدارات هي نيابة الأمور الأهلية، ونيابة الثقافة والتعليم، ونيابة الاقتصاد والفلاحة والميزانية وحفظ الصحة، ونيابة الغابات وتربية الماشية، ونيابة الإشغال العمومية والمالية، ويمثل الخليفة في المدن الباشوات وفي البوادي القياد ويخضعون لسلطة ومراقبة القناصل والضباط العسكريين الإسبان.[5]

ثالثاً: العلاقات والمراكز التجارية الإسبانية بشمال أفريقيا

رفع الإسبان والبرتغال شعارات مسيحية تنادي بمحاربة أعداء الكنيسة الكاثوليكية عندما زحفوا للسيطرة على السيطرة المغربي الأطلسي وهي ما عرفت بحرب الاسترداد، إلا أن هذا الهدف الديني لم يكن له ظهور واضح في الحملات العسكرية الموجهة إلى هذه المنطقة بل تظهر أهمية الأطماع الاقتصادية وكونها الدافع القوي لتحركات الدولتين المتنافستين[6]، فاتجه اهتمامهما إلى استغلال الثروات الطبيعية والبشرية عن طريق التدخل السلمي المبني على الاتفاق مع السكان المحليين تارة أو عن طريق الغارات العسكرية والاحتلال المباشر تارة أخرى وقد تركز اهتمام الإسبان الاقتصادي في منطقة شمال أفريقيا لوفرة الموارد الاقتصادية فيها كالمنتجات الزراعية مثل الجلود والشمع العربي وغيرها والمعادن كالذهب والفضة والنحاس والنيلة وغير ذلك مما هو متوافر بالمنطقة إضافة إلى الثروات البحرية من اسماك ومحار

(1) Macharia Meunene ، History of Western Sahara and Spanish Colonisation ،Nairobi ،no date ،P 92.
(2) فيصل محمد موسى، موجز تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، بنغازي، 1997، ص222.
(3) يحيى، المصدر السابق، ص62.
(4) ميغيل مرتن، الاستعمار الاسباني في المغرب (1869-1956)، دار المناضل، المغرب، د.ت، ص- ص27-29.
(5) مرتن، المصدر السابق، ص- ص122-123.
(6) الجمل، المصدر السابق، ص77.

وغيرها[1]، إضافة إلى توفر اليد العاملة التي كان البرتغال والإسبان على الخصوص بحاجة ماسة إليها، للعمل بجزر الكناري أو بقشتالة، وذلك لتعويض النقص الحاد في النمو السكاني الذي شهدته أوربا عامة عقب وباء الطاعون الجارف لسنة 1348، فكانوا يغيرون على الساحل المغربي ويختطفون الأطفال والشباب، ذكوراً وإناثاً، ويرغمونهم على اعتناق المسيحية لكي يعمروا المناطق الخالية من جزر الكناري ويشتغلوا فيها بالزراعة.[2]

وقد ازدهر النشاط التجاري بالمنطقة، وكانت المراكب نشيطة في حمل السلع الأوربية إلى الجنوب المغربي ونقل السلع المحيطة إلى أوربا، وبلغ هذا التبادل درجة من الازدهار دفعت بالتاج الإسباني إلى اتخاذ إجراءات للضبط والمراقبة تمثلت في تحديد الموانئ الخاصة بالتجارة مع الساحل المغربي لتشديد المراقبة على السلع المحملة والحرص على عدم إرسال الممنوع منها إلى المغاربة، كالأسلحة وفي هذا الإطار جعل ملكا اسبانيا فرناندو وإيزابيلا، التجارة مع الساحل الأطلسي المغربي من اختصاص دار المقاولة.[3]

كما تنبه الإسبان للأهمية التجارية للساحل المغربي الجنوبي، ولكونه ممراً لسفنهم ومراكبهم المتجهة صوب الجنوب، فنشأت بينهم وبين البرتغال منافسة حادة حول جزر الكناري والساحل الأطلسي المغربي، وقد انتهى الصراع على الجزر ببسط الإسبان سيطرتهم عليها بمباركة من الفاتيكان، وبلغ هذا التنافس حد الصراع العسكري غير أن تدخل الكنيسة الكاثوليكية دفع الطرفين إلى عقد معاهدة توردزيلاس كما ذكرنا سابقاً[4]، إلا أن الإسبان والبرتغال لم يحترموا هذا الاتفاق، بل اشتغل كل منها بإيجاد موطئ قدم في المنطقة بعقد معاهدات الحماية والتجارة مع السكان المحليين وبناء حصون وقلاع على الساحل تتخذ مراكز للتجارة وقواعد عسكرية لحماية المصالح.

وقد كان البرتغاليون السباقون في إطار المنافسة المحمومة على النفوذ بالمغرب إلى تأسيس حصن بمجال قبيلة ماسة التي دخلت في حمايتهم في عام 1479 فكان رد الإسبان بناء حصن على الساحل القريب من هذه القبائل سمي حصن سانتا كروز وإخضاع القبائل المجاورة له لحمايتهم وقد استخدم الإسبان هذه الحاميات والحصون كمراكز للتجارة إضافة إلى كونها مراكز لانطلاق البعثات التبشيرية الكاثوليكية للتبشير في القبائل المجاورة لها.[5]

إما عن البعثات التبشيرية الإسبانية في شمال أفريقيا فعلى الرغم من الأهداف الدينية التي ادعي أنها كانت وراء الغزو الإسباني لشمال أفريقيا فان البعثات التبشيرية الإسبانية لم تكن كثيرة مقارنة بالبعثات الأوربية الأخرى لاسيما تلك التي كانت ترسلها الكنيسة البابوية، وكان فردناند الكاثوليكي قد أعلن عن تشجيعه لغزو الساحل المغربي الإسلامي وعلى إقامة أسقفية في بجاية وكنيسة بوهران كما أوصت إيزابيلا بوجوب مواصلة فتح أفريقيا وعدم الانقطاع عن المحاربة من اجل الدين ضد أعداء الدين[6]، كما عمل الإسبان في وبموجب معاهدة عقدت عام 1861 مع المغرب على منح امتيازات كثيرة للمسيحيين وحق تأسيس البعثات التبشيرية وبناء الكنائس وجلب المبشرين ومن ابرز البعثات الإسبانية كانت بعثة طنجة والتي فتحت مستشفى بإدارة الفرنسيسكان وناشات مطبعة عربية واسبانية وأسست مأوى للفقراء وانتشر منها أربعون مبشراً ومبشرة للعمل الاحساني[7]، وقد استقر المبشرون في مدن الساحل المغربي ومنها ينتشرون نحو الداخل وكان عدد المراكز التبشيرية الإسبانية مع بداية القرن العشرين 8 مراكز تتواجد على الساحل وتقوم بإرسال المبشرين وتأسيس المدارس ونشر الكتب المسيحية وممارسة الخدمات الطبية.[8]

([1]) Archibald Wilkberforce، Spain and her Colonies ،London ،1971 ، p-p 208-210.
([2]) John Conor ، The Spanish Conquest of the Canary Islands، NewYork،2005، p.13.
([3]) Prescott OP.Cit P.87.
([4]) Prescott OP.Cit P.92.
([5]) Meunene OP.Cit P.75.
([6]) بلقاسم الحنايشي، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مركز الدراسات الموريسكية، تونس، 1992، ص-ص 44-45.
([7]) المصدر نفسه، ص98.
([8]) المصدر نفسه، ص104.

المبحث الثالث

المستعمرات الإسبانية غرب أفريقيا

أولاً: جزر الكناري:

تركز اهتمام الإسبان على المناطق الساحلية الإفريقية المطلة على المحيط الأطلسي والتي تصلح لاستخدامها كمحطات للانطلاق نحو العالم الجديد في الأمريكتين، فعملت على احتلال جزر الكناري وهي أرخبيل من الجزر يقع شمال غرب أفريقيا في المحيط الأطلسي على بعد ستين ميلاً من الشاطئ الإفريقي استخدموها فيما بعد كمحطة بحرية لسفنهم التي تعبر المحيط نحو أمريكا الجنوبية، وكانت أولى البعثات التي وصلت إلى هذه الجزيرة هي بعثة جين دي بيثينكورت وغاديفر دي لاسال إلى جزيرة لانزاروت عام 1402[1]، وقد بدأت أولى المحاولات الإسبانية لاحتلال الجزر عام 1461، ثم أرسل فردناند وإيزابيلا بعثة أخرى عام 1478 بقيادة جوان ريجون الذي قام ببناء حصن على إحدى الجزر الكبيرة وأتمت اسبانيا احتلال الجزر بأكملها عام 1496[2]، وقد كثر عدد المهاجرين الإسبان لهذه الجزيرة واختلطوا بالسكان الأصليين وتزوجوا منهم، كما اعترف الملك هنري ملك قشتالة بأحد المواطنين الإسبان حاكماً على هذه الجزر وطلب منهم نشر الديانة المسيحية واللغة الإسبانية بين سكانها.[3]

اعتبرت جزر الكناري أول الأمر أشبه بالمخفر الأمامي منها بمستعمرة ثابتة وتركز اقتصاد الجزر حول التجارة البحرية وعمل بعض السكان في الزراعة لاسيما في الجزر الغربية الخصبة، والبعض الأخر عمل في صيد الأسماك، ومع اكتشافات كولومبس أصبحت الجزر مناطق توقف واستراحة للسفن المتوجهة نحو أمريكا، وبالتالي فقد وجهت موارد الجزر للعمل على تموين رحلات هذه السفن بالدرجة الأولى.[4]

تميزت جزر الكناري بإنتاجها للسكر وكانت المورد الأول للسكر في اسبانيا إضافة إلى إنتاجها للنبيذ الذي كان مرغوباً في اسبانيا والأمريكيتين وكذلك إنتاج الإصباغ الذي اشتهرت به هذه الجزر[5]، وعندما كانت اسبانيا تستعمر أمريكا الجنوبية أنشأت اسبانيا عدداً من المراكز الإدارية في الجزر في محاولة لإيقاف عمليات التهريب بين الجزر والمستعمرات الإسبانية في الأمريكتين فأسست ما عرف بالقطاع القضائي عام 1566 الذي كان من ضمن إعماله تفتيش السفن القادمة والذاهبة إلى الأمريكتين والتأكد من الالتزام بالقوانين الإسبانية وكان ميناء تيرينيف هو الميناء الرئيسي في هذه الجزر.[6]

استغلت اسبانيا سكان الجزر في اغلب الأحيان بالاستفادة منهم كمستوطنين في مستعمرات أمريكا وكذلك استخدامهم للخدمة في الجيش الإسباني وقد هاجرت إعداد كبيرة من سكان الجزر إلى المستعمرات نتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة التي عانوها جراء السياسات الإسبانية الاقتصادية.[7]

ثانياً: غينيا الاستوائية:

بعد أن ثبتت اسبانيا إقدامها في العالم الجديد ظهرت الحاجة إلى الرقيق الإفريقي للعمل في مستعمراتها في أمريكا الجنوبية، فعملت على الاستيلاء على جزيرة فرناندو بو عام 1778 في منطقة خليج غانا حين تخلّت البرتغال عنها لمصلحة اسبانيا، مقابل حصولها من اسبانيا على جزيرة سانت كاترين ومستعمرة ساكرمنتو، التين كانتا موضع نزاع بين لشبونة ومدريد.

(1) John E Klcza،Pattems in Early Spanish Overseas Expansion ،NewYork،1992،p.234.
(2) Conor،Op.Cit.P.11.
(3) حميدي، المصدر نفسه، ص75.
(4) موسى، المصدر السابق، ص- ص70-71.
(5) kicza،Op.Cit.P.231.
(6) Conor،Op.Cit.P.10.
(7) kicza،Op.Cit.P.242.

وفي الوقت نفسه، اعترفت البرتغال لإسبانيا، بحق الاتجار مع سكان شواطئ خليج غينيا، وبعد خمس سنوات من احتلال الإسبان لجزيرة فرناندو بو، لم يبق على قيد الحياة في الجزيرة، سوى 22 من أصل 150 إسبانياً شكلوا الحملة الإسبانية التي نزلت في الجزيرة.[1]

وقد اتخذها الإسبان مركزاً لتجميع الرقيق الإفريقي وتصديره للعالم الجديد، وأقامت اسبانيا عدداً من الحصون والمراكز التجارية المخصصة لتجارة العبيد وإرسالهم إلى المستعمرات الإسبانية في العالم الجديد نظراً للنقص الشديد في الأيدي العاملة التي عانته هذه المستعمرات.[2]

وفي القرن التاسع عشر، نازع الانجليز الإسبانيين، ملكية الجزيرة ، ووصلتها حملة بريطانية عام 1827، أقامت فيها، بحجة تشكيل محكمة تدين، الذين يخافون قوانين تجارة العبيد، ولكن بريطانيا اضطرت إلى الانسحاب منها عام 1832، أمام اعتراضات مدريد الشديدة والمتكررة، ثم عرضت على اسبانيا شراء الجزيرة، إلا أن اسبانيا رفضت العرض.[3]

وسيرت اسبانيا حملة بحرية أخرى عام 1843، كان من نتيجتها أن احتلت، إضافة إلى جزيرة فرناندوبو، جزر كوديسكو، وايلوبي، وانوبون وضمتها إلى ممتلكاتها، وقد حصلت اسبانيا على اعتراف الدول الأوربية في مؤتمر برلين عام 1885، بمستعمراتها الواقعة بين ريوكامبو وريوموني[4]، وفي عام 1843 جهزت اسبانيا حملة عسكرية أخرى احتلت بها جزر كوديسكو وريموني وجزر انوبوت لتستخدم لنفس الغرض وهو تجارة العبيد وتصديرهم للمستعمرات، وأول عمل إداري لجأت إليه السلطات الإسبانية، كان طرد المبشرين البروتستانت، الذين قدموا إلى الجزيرة مع دخول الانجليز إليها.[5]

وبعد عقد مؤتمر برلين عام 1885 اعترف لاسبانيا بالشاطئ الواقع بين ريو كامبو وريوموني وقد شكلت هذه المنطقة ما يعرف باسم غينيا الإسبانية وأصبحت عاصمتها سانتا إيزابيلا وقد زاد اهتمام الإسبان بها واخذوا يعملون على تطويرها بعد أن تقاطر إليها الكثير من المهاجرين الإسبان وخضعت للحكم الإسباني المباشر حتى استقلالها عام 1968 وأخذت تعرف باسم غينيا الاستوائية.[6]

ثالثاً: السياسة الإسبانية تجاه المستعمرات:

تمكن الإسبان من حكم المستعمرات بالقوة ولم يتورعوا عن أي وسيلة للوصل إلى أهدافهم التي تلخصت في الحصول على الذهب وشحنه على السفن إلى اسبانيا وكان الحكام الإسبانيون الأوائل يقسمون الغنائم بين الجنود ويقسمون الأراضي بين الضباط ونقلوا نظم اسبانيا كما هي إلى هذه المناطق.[7]

حكمت اسبانيا مستعمراتها كما لو أنها وجدت فقط لتوفير المعادن الثمينة لاسبانيا ولزيادة القوة والثروة فيها من خلال التجارة إذ فرضت الحكومة الإسبانية سيطرة احتكارية على التجارة مع مستعمراتها من خلال تقييد صارم للموانئ ومعاقبة السفن التي تنقل البضائع عدا تلك التي تتوجه ناحية اسبانيا ففي عام 1504 أنشأ الإسبان في عهد فردناند وإيزابيلا مجلس التجارة لتنظيم التجارة بين اسبانيا ومستعمراتها واحتكار هذه التجارة وفي 1542 انشأ شارل الخامس مجلس جزر الهند كهيئة لسن القوانين للمستعمرات وخلال ثلاثة قرون من وجود هذا المجلس سن عدد هائل من التشريعات الخاصة بالمستعمرات[8]، وقد أتاح ذلك للأسبان من جلب كميات هائلة من معدن الفضة إلى أوربا كانت تعاني من نقص شديد فيه،

(1) John M. Lipski، The Spanish of Equatorial Guinea ، NewYok ،No date ،P.11.
(2) حميدي، المصدر السابق، ص76.
(3) David Aworawo ، The Changing Pattern of Relations between Nigeria and Equatorial Guinea، 1980-2005، Journal of International and Global Studies، Lagos،No date، p.92.
(4) Lipski، Op.Cit.P.25.
(5) Nowara Christopher، Spanish Antislavery and Africa، **1808-1898**، A Journal for the Study of Knowledge، Politics، and the **Arts** ،**Vol 3**، **(September 15**، **2012)**،**p-12**.
(6) حميدي، المصدر السابق، ص76.
(7) Aida Blanco، Spain at the Crossroads، University of Wisconsin ،Madison، 2007،p. 13.
(8) Wilhelm Roscher ،Spanish Colonial System ، New york 1904 P-25.

وقد أصبحت الفضة إلى أوربا الذي كانت تعاني من نقص شديد فيه، وقد أصبحت الفضة في عهد فيليب الثاني مثلاً ذات شأن كبير على مجرى الحياة في اسبانيا، بل وسيطرت على تطور الحياة السياسة والاقتصادية والاجتماعية في أوربا.[1]

كان سكان المستعمرات الإسبانية من الناحية النظرية من اشد شعوب الأرض خضوعاً لنظم حكومية مستبدة لكنهم في الواقع كانوا يعملون ما تهوى أنفسهم ويتمتعون بنوع من الحرية نتيجة لبعد المستعمرات عن الدولة الأم من جهة وانتشار الفساد والرشوة التي خففت من وطأة طغيان الدولة الحاكمة عليهم من جهة أخرى.[2]

وكانت السياسة الأساسية التي اتبعها الإسبان نحو مستعمراتهم هي أن يكون الشطر الأكبر من السكان هم من الأصليين والخلاسيين المولودين الذين روضتهم البعثات التبشيرية المسيحية التي كانت دائماً ما تؤكد على الولاء للتاج الإسباني وان يؤكد على تعليمهم اللغة الإسبانية والنظم الإسبانية[3]، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى واثر تولي الجمهوريين للسلطة في اسبانيا عام 1931 وتزعم الجنرال فرانشيسكو فرانكو قادة الجيش في ثورة ضد النظام اندلعت الحرب الأهلية بعد أن نقل فرانكو كحاكم لجزر الكناري، إلا انه عاد وقاد المعارضة في مراكش ومنها إلى اسبانيا وبعد حرب أهلية طاحنة استمرت ثلاث سنوات تمكن من الوصول إلى الحكم عام 1939 واستمر حكمه حتى عام 1974.[4]

اتبعت الحكومة الإسبانية سياسة ليبرالية تجاه المستعمرات رغم أنها كانت حكومة دكتاتورية شمولية وإدارة المستعمرات كانت خاضعة للجيش الإسباني في محاولة منها للتخفيف من الأصوات بالاستقلال في هذه المستعمرات لاسيما في منطقة الصحراء الغربية في المغرب العربي.[5]

وبالتالي يمكن القول أن سياسة الحكومة الإسبانية نحو مستعمراتها في أفريقيا لم تكن مشابهة لسياستها نحو مستعمراتها في العالم الجديد ولعل ذلك يعود إلى قلة أهمية هذه المستعمرات مع نظيراتها في العالم الجديد بالنسبة إلى اسبانيا من جهة وحالة الضعف التي مرت به اسبانيا في القرون الأخيرة وتدهور سمعتها كدولة بحرية واستعمارية كبرى من جهة أخرى.

الخاتمة

يتضح مما سبق أهمية الدور الذي مارسته اسبانيا في استعمار القارة الإفريقية ويمكن لنا أن نلاحظ عدد من المميزات لهذا الاستعمار منها:

1- تميز الاستعمار الإسباني في بدايته بدوافعه الدينية المتمثلة بمحاربة الإسلام إلا أن هذا الأمر سرعان ما تغير وأصبح الدافع الأساسي للاستعمار الإسباني هو العامل الاقتصادي.
2- تركز اهتمام الإسبان في أفريقيا على المناطق الساحلية الغربية للقارة والتي اتخذوها كقواعد ومحطات استراحة لسفنهم المبحرة نحو العالم الحديد.
3- مر الاستعمار الإسباني بفترات من الازدهار وفترات من الركود تبعاً لأوضاع اسبانيا السياسية والتغيرات في القارة الأوربية.
4- اختلفت سياسة الحكومة الإسبانية بشكل كبير تجاه مستعمراتها في قارة أفريقيا عن سياستها تجاه مستعمراتها في العالم الجديد وما كانت تدره هذه المستعمرات من موارد اقتصادية هائلة على اسبانيا.
5- رغم كل ما يذكر حول الاستعمار الإسباني إلا انه يعتبر اقل وطأة على سكان المستعمرات التي حكمها الإسبان من غيرهم من القوى الاستعمارية الأوربية.

([1]) Parmele، Op.Cit.P.P.112-115.
([2]) Roscher، Op.Cit.P.37.
([3]) Ibid،p.p.13-15.
([4]) موسى محمد ال طويرش، تاريخ العالم المعاصر من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب الباردة 1914-1975، ط4، مؤسسة مصر مرتضى، بغداد، 2006، ص-ص 107-109..
([5]) مرتن، المصدر السابق، ص- ص110-112.

المصادر

المصادر العربية والمعربة:

1- إياد علي الهاشمي، تاريخ أوربا الحديث، عمان، 2010.

2- بلقاسم الحنايشي، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مركز الدراسات الأمريكية، تونس، 1992.

3- جعفر عباس حميدي، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، دار الفكر، عمان، 2000.

4- جلال يحيى، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعي، الإسكندرية، 1999.

5- شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1977.

6- صلاح احمد هريدي، تاريخ أوربا الحديث، دار الوفاء، الإسكندرية، 2000.

7- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، ط5، القاهرة، 1995.

8- عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال أفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، دار العرب الإسلامي، بيروت، 1987.

9- عبد الفتاح أبو علية وإسماعيل احمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، ط3، دار المريخ، الرياض، 1993.

10-عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989.

11-فيصل محمد موسى، موجز تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، بنغازي، 1997.

12-محمد حمدي علي، الاكتشافات الجغرافية من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر، القاهرة، 1913.

13-مسعود الخوند، الموسوعة الجغرافية، ج3، دار النهضة، عمان، د.ت.

14-موسى محمد ال طويرش، تاريخ العالم المعاصر من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب الباردة 1914-1975، ط4، مؤسسة مصر مرتضى، بغداد، 2006.

15-ميغيل مرتن، الاستعمار الإسباني في المغرب (1869-1956)، دار المناضل، المغرب، د.ت.

الرسائل الجامعية:

16-عباس حسن عبيس الوسمي، حرب السنوات السبع 1759-1763 دراسة تاريخية، (رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية، جامعة بابل)، 2011.

المصادر الأجنبية:

17-Aida Blanco, Spain at the Crossroads, University of Wisconsin Madison, 2007,P. 13.

18-Archibald Wilkberforce, Spain and her Colonies, London, 1971.

19-David Aworawo, The Changing Pattern of Relations between Nigeria and Equatorial Guinea, 1980-2005, Journal of International and Global Studies, Lagos, No date.

20-Edward. R. Shaw, Discoverers and Epxlorers, New York, 1910.

21-John Conor, The Spanish Conquest of the Canary Islands, New York, 2005.

22-John E Kicza, Pattems in Early Spanish Overseas Expansion, New York, 1992.

23-John M. Lipski, The Spanish of Equatorial Guinea, New Yok, no date.

24-Macharia Meunene, History of Western Sahara and Spanish Colonisation Nairobi, no date.

25-Mary Platt Parmele, Short History of Spain, New York, 1916.

26-Nowara Christopher, Spanish Antislavery and Africa, 1808-1898, A Journal for the Study of Knowledge, and the Arts Vol 3, (September 15, 2012). Politics.

27-Wilhelm Roscher Spanish Colonial System, New York, 1904.

28-William H. Prescott, The History of the Reign of Ferdinand and Isabella The Catholic, V2, New York, 1973.

الموسوعات الأجنبية:

29- The New Encyclopaedia Britannica , USA , 2003, Voll.4.

شبكة المعلومات العالمية (الانترنت):

30-www.wikipedia.org.wiki.

31-http://www mawsoah.net\maogen.asp.

32-http://ar. wikiped ia.org\wiki\christopher-columbus.

33-http://encyc.reefnet.gov.s.